

مقدمة

مهلاً قارئى العزيز ؛ فى اى آثار الدهشة قد استولت عليك ، حينما طالعت غلاف هذا الكتاب . لعلك يا عزيزى تتساءل عن زميلى الفاضل الدكتور عبد العزيز عبد المجيد ، ذلك الباحث المدقق الذى سعدت برفقته فى جولتى العلمية بالجزء الأول من هذا الكتاب .

حقاً لقد كانت صحبة كريمة ، يزينها سمو المقصد ، ونبل الغاية . وكنت أود أن أراه بجانبى يشاطرنى ذلك المجهود المتواضع ، ويستأنف معى ذلك الشوط الثانى فى رحلتنا النافعة والممتعة فى وقت واحد . ولكن الهجرة فى سبيل إحياء العلم ، والنهوض بالمعرفة ، بعض ما يهدف إليه العلماء المكافحون . فلا حى فيه صدق جهاده ، ولأبعث إليه من وراء البحار ، رقيق تحياتى ، وعظيم تقديرى .

ولأعد إليك أيها القارئ — وقد وقفت على بداية القصة ، وعرفت أن كتابنا هذا تمة لكتاب سابق — لأقول لك : إن حرصنا على توثيق الصلة بين كليهما أدانا إلى أن نعود فى مستهل هذا الكتاب على مؤخر الكتاب الأول عوداً يتسم بشيء من العجلة والأناة معاً ، فهو يبدأ بلمحة خاطفة عن التربية القديمة وقادتها الذين مازالت التربية الحديثة تكن لهم ما يكنه التلميذ لأستاذه من مهابة وإجلال . ثم يسلمك إلى وقفات طويلة عند بعض الطرق الحديثة التى حظيت منا بالشرح والنقد والتحليل . وليكن معلوماً أننا لا نهدف من وراء هذا إلى مجرد سرد الحقائق العلمية ، ولكننا نأمل أن تكون تلك الحقائق وحيّاً للمدرس الناشئ ، يستلهمها كلما عَنّ له أن يعدل خطته ، أو أن يضمنى عليها لوناً من الجدة والطرافة .

ولقد وجهنا اهتمامنا — مستجيبيين للاتجاه الحديث إلى العناية بالطفل واتخاذ محور الارتكاز فى عملية التربية — إلى الحث على دراسة التلميذ دراسة

شاملة ، والتفطن لما يحول بذهنه من خواطر ، وما يجيش في قرارة نفسه من مشاعر ، وما يعترض سبيل حياته من مشاكل . فإن ذلك كفيل بسلامة التوجيه ، وحسن الرعاية وغير ذلك مما لا بد منه ، لإنهاض مجتمع صالح ، على أساس من المبادئ الديمقراطية العادلة .

ومن هنا كنا حريصين - حينما انتقلنا إلى دراسة المنهج - على أن نتناول بالتمحيص والعلاج مشكلة العلاقة بين الطفل والمنهج ، محاولين بقدر استطاعتنا التوفيق بين طرفي هذه المشكلة . على أننا لم ننس حظ القارئ ، ولا حق العلم ، فقد عرضنا المنهج في ضوء المذاهب الفلسفية المختلفة متناولين الأسس التي يبنى عليها ، والاعتبارات التي ينبغي أن تراعى عند وضعه ، والأمور التي يتوقف عليها النجاح في تطبيقه ، ثم لم يكن من الصعب علينا بعد ذلك كله أن نبرز مواطن الضعف المختلفة في مناهجنا الحالية بوجه عام . ولم يفتنا أن نفرّد جانباً للمادة التي يتكون منها المنهج ، نزيد القارئ فيه إلماً بالعلاقة بين المواد الثقافية والمواد المهنية : وما يرميان إليه من تربية حرة وتوجيه مهني . وأدلبنا برأينا الخاص في حل تلك المشكلة ، وعسى أن نكون قد أصبنا التوفيق بين طرفيها .

على أننا لا نبغى من وراء إعلان آرائنا الخاصة أن نوسع دائرة الخلاف العلمي ، وأن نتجنى فيها جانباً منعزلاً نطل منه على قرائنا ، ولكن هدفنا الأسمى هو أن ننتفع بخبرة سابقينا ، وأن نتعاون مع معاصرنا على عرض الثروة العلمية في خير معرض ، وربما لقينا في سبيل هذا بعض الصعوبات ، كما حدث عندما عرضنا للمشكلة الخلقية ، وأعلننا رأينا الخاص في تحديد مدلول الأخلاق ، وما حملنا على ذلك إلا إشفاقنا على القارئ من أن يتخبط وراء تلك الغاية في المراجع المختلفة فلا يجد إليها سبيلاً . ولم نشأ أن نحرمه أثناء عرضنا لمستويات السلوك الخلقى من ذكر الأمثلة المختلفة التي تكشف له عن هذه المستويات . ولقد أخذنا بيده في رفق وهودة إلى مدارج الماضي وألفية الحاضر حيث يستعرض قادة التربية قداماءهم ومحدثهم ليقف على نظرة

كل منهم إلى أهمية الغرض الخلقى ، قبل أن نواجه بوسائل التربية الخلقية المباشرة وغير المباشرة ، وقبل أن نطوف به في ميادين الأخلاق ، ونتردد بين البيت والمدرسة مبينين أثرهما في تنشئة الطفل على الأخلاق الفاضلة . ولكننا أخيراً نعتذر إلى القارئ إذا كنا قد صدمناه بالحقيقة المرة فما كان لنا أن ننكر أنه إذا كانت هنالك محنة قاسية يتلظى بنارها ذلك المجتمع ، فهي تلك المحنة الأخلاقية التي تتطلب العلاج الناجز السريع .

ولم يكن لنا أن نقف في التربية الخلقية عند هذا الحد ، ونصرف النظر عن موضوع طالما شغل أذهان المربين هو موضوع الحرية والنظام . وأى بحث أجدى على العملية التربوية من أن نكشف اللثام عن السر الذي تكمن وراءه طاعة الأطفال للمدرسين ، وأن ندرس أطوار الإدارة النظامية في المدارس على مر الدهور ، وأن نحدد الموقف الذي ينبغي أن نتخذه من هذه الأدوات جميعاً ، مارين بنظرية العقاب ، معلنين أنه لا ينبغي أن يكون عقاباً سلبياً تقف الغاية منه عند حد الجزاء والانتقام ، ولكن يجب أن يكون إيجابياً يؤدي رسالته في إصلاح الطفل وتقويمه .

وبمثل الصعوبة التي صادفتنا في تحديد مدلول الأخلاق ، حاولنا تحديد مدلول الجمال ، وكفينا القارئ عناء الحيرة أمام الآراء المتضاربة لختلف رجال التربية الذين تصدوا لبحث هذا الموضوع . وقد اهتممنا بالتقدير الجمالي ، وانتقلنا إلى ميادين التربية الجمالية ممثلة في البيت والمدرسة ، ثم أعقبنا ذلك بعرض سريع لموضوعات الدراسة المختلفة ذات الأثر البعيد في خلق الشغف بالجمال ، وتنمية الحاسة الجمالية عند الأطفال .

ثم انتقلنا إلى مشكلة الامتحانات التي قتلها بحثاً رجال التربية الحديثة ، فكان علينا أن نبذل أقصى الجهد في أن نعرض على القارئ ثقافة جديدة تشغله عما علق بذهنه من آراء ترددت في ثنايا التقارير والمحاضرات التي عرضت لهذا الموضوع . كما أوضحنا له المشكلة في ضوء المذاهب الفلسفية المختلفة ، ووضحنا يده على القول الفصل في هذا الموضوع ، وهو أن الامتحانات إن لم

تكن خيراً لا غنى عنه ، فهي شر لا بد منه .

ورحمة بالطفل ، وادخاراً لجهود المربين تساءلنا عما يدفعه إلى العمل ، أهو سوقه وإرغامه أم هو إثارة اهتمامه وجذب ميوله ؟ ولقد أدانا ذلك التساؤل ، إلى عرض وجهتين من النظر مختلفتين تمام الاختلاف ، قائمتين على الحجج والأسانيد . ولقد هدتنا دراستنا إلى أن كلتئهما قد تناولنا الموضوع من زاوية واحدة ، بينما كان من الممكن أن تلتقيا في منتصف الطريق .

ومن ذلك العرض السريع لخطة الكتاب يتجلى واضحاً للقارئ أننا قد رفعناه على دعائتين : إحداهما فلسفية ، والأخرى سيكلوجية . أو بعبارة أخرى ، ألقينا على الحاضر ضوءاً من الماضي ، ورأبنا بالجديد صدع القديم . ولم نقف بذلك عند مجرد العرض ، ولكننا عرجنا في كل موضوع على مواطن الضعف الكامنة في نظم التربية والتعليم ، وتناولناها بالنقد البريء الذى لا غاية له إلا الصالح العام .

على أننا نعلن أن صدورنا جد رحيبة لمثل هذا النقد ، فنحن لا ندعى أننا قد أتينا على كل ما ينتظر للعلم من تقدم ونجاح ، ولكنها حلقة وصلناها بسلسلة البحوث العلمية ، ولا يضيرنا — بل يهمننا — أن يتقدم غيرنا — مشكوراً — ليزيدها قوة وتماسكاً حتى يتاح لباحث آخر أن يصل بها حلقة جديدة متينة ، وبمثل ذلك يتمكن المربون من تأدية رسالتهم ، وإنهاض حركتهم على هدى من العلم والعرفان .

ويسرنى الآن ، وقد قدمت كتابى إلى القراء ، أن أبادر فأقدم بجزيل شكرى إلى أبنائى الذين أبوا إلا أن يضربوا لى مثلاً حياً على إخلاصهم ووفائهم ، وأن يبذلوا — طيبة نفوسهم — جانباً من وقتهم وجهودهم فى سبيل إخراج هذا الكتاب . وأخص بالشكر الأستاذ نصر زيدان المدرس بالمدرسة التوفيقية ، والأستاذ محمد إسماعيل عبده المعيد بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة ، وأتمنى أن يهيئ الله لهما مستقبلاً سعيداً وأن يجزيهما عن خير الجزاء .

صالح عبد العزيز

٢٣ رجب ١٣٧٠

٧ أبريل ١٩٥١

تمهيد

إن فن التربية لن يصل إلى حالة الوضوح التام بدون مساعدة الفلسفة فهناك علاقة متبادلة بين الاثنين وأحدهما بدون الآخر ناقص ، ولا يمكن الانتفاع به ، هذا وإذا لم تبين التربية ودقائقها على أسس نفسية وفلسفية لكانت موضوعاً مملاً حتى على القائمين بالتربية أنفسهم ، ولكانت فروع التربية كالتنظيم الداخلى للمدارس والمنهاج مثلاً ، أكثر ملالة وسآمة ، ولما خرجت التربية عن أن تكون موضوعاً ميكانيكياً صرفاً ، لا يتجاوز معلومات جافة كجداول الضرب تستظهر قبل الامتحان ، ولكانت أقرب ما تكون إلى مجموعة من المعلومات المبعثرة المهوشة لا رباط فيها ولا حياة .

وليس هذا الكتاب تاريخاً لتطور طرق التربية لكنه يسرد نواحي التربية القديمة في مدارسها الماضية ، فيستعرض أسلوبها وينقد نظرتها إلى الطفل . تلك النظرة التي لم تعد تراعى من حاجاته إلا حيزاً من الفراغ حجمه مائة متر مكعب ومساحته عشرون متراً مربعاً ، ثم يعود لينظر مقارناً بها مدرستنا الحديثة بأسسها القويمة ، وأسلوبها الجديد ، فيذكر المدرس والطالب بجمود التربية المنصرمة ، وينبههما إلى حكم الأجيال القادمة علينا ، ذلك الحكم الذى يشبه حكمنا على السالفين ، ما لم نحفز الهمم . ونشجذ العزائم في تقويم أسلوبنا التربوى ، وما لم ندفع التربية في مدارسنا دفعاً إلى الأمام .

فإلى طلاب البحث في علم التربية المبني على أسس فلسفية ونفسية ، ومن يهمهم أمر التربية عموماً . . .

إلى هؤلاء جميعاً نقدم هذا الكتاب ، فإذا أتيح له أن يثير أمام بصائرهم مناحي هذه التربية الحديثة ، فقد حقق ما وضع لأجله .

تناول التربية الأشخاص فتبدأ بهم من حداثة عهدهم بالحياة ، أى من طفولتهم إلى أن تخرجهم رجالاً مربين .

فن هو ذلك الرجل المرتبى الذى تهدف التربية إلى تكوينه ؟

ذلك الرجل هو الذى أتيح له أن يقرأ ويفكر ، ويعرف أكثر ما يمكن من الموضوعات والمعلومات الملائمة لسنه وبيئته ، بحيث لا يعوزه الحديث فى تلك الموضوعات عندما تطرح أمامه فى مجتمع ما ، فهو على دراية بمواطن الحديث يعرف لكل مجال مقاله ، دون تلثم أو ارتباك ، لأنه واثق من نفسه وعلى بينة من قدرها .

هو ذلك الرجل القوى الملاحظة السريع الخاطر الثاقب التفكير ، الذى يقرأ أفكار من حوله وينفذ إلى أعماق نفوسهم ويتحسس مشاعرهم ويعامل كلا منهم بما تقضى به نظرته الفاحصة وهو دقيق فى أحكامه لا يكيل المدح ، ولا يقذع فى الذم .

هو ذلك الرجل الذى يسبح بفكره فى حقب الزمان والمكان ، القادر على حكم نفسه ، وجعلها من المرونة بحيث تتكيف مع الأوضاع بكل سهولة فلا يصدمه طارئ ولا يذهله عارض مفاجئ ، ولا يثنيه عن شق طريقه فرقة أوبعاد عن أهله وذويه .

وأخيراً هو ذلك الرجل الذى إن آمن بحق بذل فى سبيل تحقيقه النفس والنفيس .

هو ذلك الرجل الشجاع الذى يجعل وطنه كل شيء أمامه ، يحمل روحه على كفه من أجله ، ويهتف به من أعماق نفسه متمثلاً أمامه هذا القول الرائع :
إن بح صوتى فهذا دى يخط على الأرض يحيا الوطن

هو ذلك الثابت الجأش الذى لا تنال منه الكوارث مهما تابعت ولا الحوادث مهما توالى . . لأنه على علم بقوانين الحياة المتقلبة المضطربة .

هو ذلك المتواضع المترفع عن المظاهر الذى لا يرى نفسه مشجياً لأحدث الأزياء لأنه عقل قبل أن يكون جسماً - حتى بعد موته فهو لا يوصى بأن تنقش على قبره آيات المدح والثناء ، مادام مصيرها الفناء .

ولنعد إلى الطفل الذى سنتعهد به التربية لنكون منه هذا الرجل المربى ،
ولنقارن نظرتنا إليه بنظرة الأجيال السالفة .

فى عهدنا هذا تعتبر السعادة والمرح هما المميز الواضح لعهد الطفولة
ولا شك أن هذا يتعارض بشكل جاد مع الحال منذ ستين عاماً تقريباً ، بل
إننا لا نكاد اليوم نرى فى طفولتنا من اللهو والمرح ، ما يهيئ الطفل لحياة
مستقبله ، يرفرف عليها الاطمئنان ، وتشيع فيها الثقة بالنفس .

لهذا كان علينا أن نتوقع لأطفالنا صحة جيدة ، ومرحاً دائماً ، فإن لم يكن
أمرهم كذلك ، وجب علينا أن نبحث عن الأسباب والعلل ونقف منها موقفاً
إيجابياً يكفل معالجتها ، ولنترك ظهرياً تلك الأيام التى كنا نقتصر فيها على أن
نشيع حول فراش الطفل المريض جوّاً من الشفقة والحنان مكتفين بهذا الموقف
السلبى ، حتى يقضى نحبه ، فقد مضت تلك الأيام بلا رجعة .

وفى حفلات الرقص التى كانت تقيمها سيدات القرن الماضى خير مثال
على ذلك ، فقد كن يستعملن الضوء الأخضر ، حتى يبدون شاحبات كوسيلة
للإغراء والفتنة وجذب الانتباه ، فى حين أنهن اليوم ولنفس الغرض يستعملن
اللون الأحمر البرتقالى لأن الرجل الآن تبهره مظاهر الفتوة والحيوية والصحة .
وعلىنا الآن وقد عرضنا الرسالة التى تجردنا لأدائها فى هذا الكتاب ،
أن نخلص إلى تفصيلها ، بادئين بالنظم للتربوية القديمة ، حتى يتسنى لنا فيما
بعد أن نقارنها بما وصلت إليه التربية الحديثة من مبادئ وأساليب . .